دراسات فى النقود والحضارات

من ذهب السودان إلى فضة أمريكا

أو من مآسى البحر المتوسط (*)

فى هذا المكان بالذات خص مارك بلوك مشكلة الذهب كما واجهتها المجتمعات الأوروبية فى العصر الوسيط بمقالة من أهم مقالاته ، وقد رأينا أن خير ما نكرم به ذكراه هو أن ننشر فى مجلة Annales النتائج الأولى لدراسة إحدى مشاكل التداول النقدى الواسع وهى تعد دون جدال من أكبر المشاكل التى واجهتها أوربا الحديثة وأهمها من حيث نتائجها ، وإذا قلنا عنها إنها مشكلة فتلك هى لغة البحث ، أما لغة الحياة فتقول أنها مأساة .

— ١ —

من المعلوم أن نظام التجارة العامة فى البحر المتوسط فى القرن السادس عشر يبدو فى مجموعه بسيطا غاية البساطة إذ كان الميزان الحسابى مع الشرق دائم العجز وهذا هو ما يحدد سير التجارة وإتجاهها . ولما كانت التجارة العامة فى أيدى الغربيين فانه وجب عليهم أن يصدروا إلى الشرق مقادير ضخمة من الفضة المضروبة ، وعليهم بالتالى الإستمرار فى الحصول عليها . تلك هى المشكلة الكبرى ولكنها لم تكن بالمشكلة الجديدة إذ جرت الأمور على هذا المنوال دائماً أو كادت فى خلال العصرين القديم والوسيط ، وظل بعضهم زمناً طويلا يقول بأن الأمبراطورية الرومانية قد أنهكها فى النهاية هذا النزيف من المعادن الثمينة لفائدة الشرق والشرق الأقصى ، وعلى كل حال فقد حاول أهل الغرب جهدهم أن يقللوا العجز بايجاد سلع تصلح أن تحل محل النقود ، وقد شاهدنا البلاد المسيحية فى العصر الوسيط الأول تصدر الرقيق إلى أسواق الشرق بدلا من المعادن الثمينة التى هى دائماً من الأشياء النادرة ويصعب الحصول عليها ،

(*) Braudel, F., Monnaies et Civilisations. De l'or du Soudan à l'argent d'Amérique. Un drame méditerranéen — Annales d'Histoire Economique et Sociale (1946), I. 11.

وبعد أن سادت البلاد المسيحية على البحار هيأ لها نمو صناعاتها وخاصة صناعة النسيج فى الوقت الملائم عمله إضافية حقيقية استخدمتها على نطاق واسع .

وقد عرفت البندقية — وكان ذلك فناً من فنونها وسراً من أسرارها فى القرن السادس عشر — كيف تحصل فى أسواق حلب والقاهرة على التوابل والفلفل والحرير والقطن والرماد وكلها لازمة لتجارتها أو لصناعاتها ، لا فى مقابل الدفع نقداً دائماً ولكن غالباً مقابل سلع كالأقمشة والمصنوعات الزجاجية والمرايا . وفيم كانت البندقية تستخدم وكلاءها المقيمين الذين اتخذتهم لها فى الشرق ؟ لقد كان هؤلاء الوكلاء هم الذين يقومون عند سنوح الفرص بمقايضة السلع المخزونة التى عهدت بها إليهم البيوت التجارية الرئيسية فى البندقية ، وكانت هذه الإجراءات لاتزال متبعة فى القرن السابع عشر وقد جاء لها وصف طيب إلى حد ما فى مراسلات القناصل البنادقة بسوريا ، ولكن لدينا شهادة أخرى تبين بجلاء الصعوبة التى واجهتها التجارة الغربية فى دفع ثمن سلع الشرق الثمينة نقداً ، ففى وثيقة من راجوزة مؤرخة فى ١٥٧٣ نجد مايدل على أن الفائدة على النقد فى الاسكندرية بمصر بلغت حداً كبيراً حتى أن التجار اليهود كانوا يقرضون التجار المسيحيين الذين حل بهم الضيق بربا فاحش تراوح سعره بين ٣٦و٤٨٪ فى السنة ، وعلى ذلك فان الجاليات التجارية المسيحية فى الشرق غالباً ما كانت فى ضيق بسبب صعوبة الحصول على النقود اللازمة ، وقد حلت النكبة بمعناها الدقيق فعلا بالبيوت التجارية البندقية القديمة فى سوريا حين وفد إلى أسواق الشرق فى الثلث الأخير من القرن جماعات المشترين الفرنسيين ثم الإنجليز والفلمنك (أى الهولنديين والزيلنديين) الذين قاموا بدفع ثمن مشترياتهم نقداً دون انتظار سنوح الفرص الملائمة للتبادل ومقايضة السلع بغيرها ، وقد ترتب على ذلك حتما ارتفاع فى الأسعار وأزمة مفاجئة فى التجارة البندقية التى سارت على الطريقة القديمة .

ولكن هذه النقود التى لاغنى عنها تحتم الحصول عليها من مكان ما : حصل عليها الفرنسيون من أسبانيا وإيطاليا ، ويروى لنا هاكليوت أن الإنجليز كانوا يحصلون عليها أيضاً من إيطاليا ، فكانت جنوه ولفورن والبندقية فى الجزء الأوسط من البحر تورد النقود والعملات لتجارها وكذلك للتجار الذين يتعاملون

فى موانيها، وتبين وثائق راجوزة فى خلال القرن السادس عشر كله عودة النقود التى كانت تتسرب من البندقية ، وبديهى أن ذلك كان بمثابة العين الصغيرة اذا قيس بالنبع العظيم فى أشبيلية الذى كان يغذى أكثر من غيره التداول فى البحر المتوسط . ولكن الدور الكامل الذى قام به هذا النبع فى البحر المتوسط — وهذه النقطة هى إحدى النقط التى نود بيانها — قد تأخر زمانه بكثير عن الوقت الذى قد تحملنا الكشوف الكبرى على افتراضه ، وذلك لأن الفضة أو المعدن الأبيض الأمريكى لم تصل فى التو والحال بكميات ضخمة إلى بلاد البحر الداخلى أى المتوسط .

* * *

وكان لهذا البحر الداخلى قبل القرن السادس عشر منافذ لحياته الاقتصادية إلى مناجم كثيرة من الذهب والفضة ولكنها فى الأغلب كانت قليلة الأهمية على وجه الاطلاق ، وفى الأعم عاجزة عن الاستمرار فى ازدهارها زمناً طويلا : ومن أمثلتها بعض مناجم الذهب فى الألب وسردينيا والقرم وبلاد الصرب القديمة ، ومناجم الفضة فى ارزجبرج أو التيرول وخاصة مناجم شواتزالتى كانت السبب المباشر فى قوة وثراء آل فوجر وغيرهم من تجار اوجزبورج وأصحاب البنوك فيها فى القرن الخامس عشر ، أما ان مناجم الفضة فى أوروبا الوسطى قد نشطت نشاطاً فريداً فى القرن الخامس عشر نتيجة للكشف فى ١٤٥١ عن طرق جديدة لصهر المعادن تسهل فصل معادن الفضة عن معادن النحاس فهذه مشكلة هامة ولكنها على الرغم من أهميتها تعد على هامش البحث ولا تدخل فى صميمه .

وفى الواقع نجد أن العون المنتظم للبحر المتوسط ، وهو العون اللازم لدفع نفقاته العادية فى الشرق ، قد جاءه من مصدر آخر فهو قد جاءه من ذهب السودان وليس هناك غيره فيما أعلم . وقد قام جيم كورتيزار حتى الآن لا ببيان أهمية هذا الذهب وهى معروفة من قديم ولكن ببيان قيمته فيما يتعلق بالمجرى العام لحياة البحر المتوسط وإن شئنا قلنا إنه قام ببيان المكان الذى تشغله حياة البحر المتوسط بما فيه مخارج الشرق فى الدورة العامة . ذلك أن هناك صلة وهى صلة نود فى هذا المقال أن نبين قوتها ومتانتها ، صلة لم يدركها أحد ولم يبين أهميتها

أحد ، بين تجارة الشرق العظيمة من ناحية وبين شحن التبر السودانى إلى مدن أفريقيا الشمالية وموانيها من ناحية أخرى . لقد كان من حسن حظ الغرب اللاتينى أنه كان قد ساد منذ القرنين الثانى عشر والثالث عشر على الطرق البحرية فيما بين أفريقية والشرق ، واستطاع بسبب سيادته هذه أن يقتحم الأبواب التى ظلت حتى ذلك الوقت موصدة فى أفريقيا الشمالية .

ومن المعلوم أن تبر السودان يعد منذ وقت طويل وعلى وجه التحقيق منذ القرن العاشر ، وشأنه فى ذلك شأن تجارة الرقيق الأسود ، أهم العناصر فى التجارة الصاعدة من بلاد ما وراء الصحراء الكبرى . ومن الأمور التى لم تدرك حق الادراك أن هذا الذهب ظل قروناً عدة سلاحاً حاسماً من أسلحة البلاد الاسلامية الغربية (أى أسبانيا وافريقيا الشمالية الاسلامية اللتين ارتبط مصير كل منهما بالآخر ارتباطاً قوياً) وفى القرن العاشر استقرت بلاد الأندلس المتحضرة النشطة على الشاطىء الجنوبى لمضيق جبل طارق فى مدينة سبتة ، فدخلت بذلك فى علاقات اقتصادية أكثر استمراراً مع البلاد المغربية ؛ ومن ناحية أخرى كانت تسود فى أفريقيا الصغرى حياة جديدة ، فقامت فيها المدن كالجزائر ووهران ، وازدهرت المراكز القديمة كتونس وبوزية ، وفى القرنين العاشر والحادى عشر وصل الذهب السودانى إلى أفريقية وعن طريقها إلى أسبانيا يدل على ذلك علم النميات وكذلك تاريخ الممالك الاسلامية باسبانيا التى ازدهرت بها الحضارة . ويمثلها لنا بعضهم فيما بعد القرن العاشر عاجزة عن الدفاع عن نفسها أمام الدويلات المسيحية الشمالية الفقيرة مفضلة أن تدفع لها الجزية على تحمل آثار النهب المستمر لغزوات فرسانها . ولكن إذا تأملنا ذلك حق التأمل أليس ذلك هو الحل الذى يلجأ إليه الأثرياء المفرطون فى الثراء ؟ وعلى أية حال فان هذه الثروة السودانية التى تسربت عبر الطرق الأفريقية كانت تصل حتى القرنين الثانى عشر والثالث عشر إلى البلاد الاسلامية الغربية التى اتحدت مرتين على مقتضى الظروف فى تلك الوحدة السياسية الكبيرة المؤقتة التى أنشأها المرابطون والموحدون . وقد أجمعت مصادر عصر الموحدين (ومعظمها من القرنين الثانى عشر والثالث عشر) على شىء واحد فكلها تذكر ثروة من المعادن الثمينة والدنانير الذهبية الجميلة التى التى كانت تصدر بتواطؤ التجار بعضهم بعد بعض إلى العالم كله ودون شك

إلى بلاد الشرق . وإننا نكرر القول بأن وراء هذا الرخاء فى البلاد الاسلامية الغربية تكمن الحياة العامة لبلاد البحر المتوسط .

* * *

بدأ المغرب فى القرن الثالث عشر يتفكك إلى دويلات بعدد ما كان به من مدن تجارية ، وأهم من ذلك أن هذه الدول فتحت لمتاجرة التجار المسيحيين وازداد نشاط هذه التجارة وعلانيتها على مر الأيام . ذلك هو الحدث الأكبر فى حياة المغرب بغض النظر عما يراه التاريخ العام فى هذا الحدث فهو فى آثاره ونتائجه يتعدى حدوده بكثير ، وأصبح المغرب منذ القرن الثالث عشر بشكل واضح هو منجم الذهب الذى بدونه يتوقف أو على الأقل يتأثر نشاط البحر المتوسط وخاصة تجارة الشرق الغنية القوية . وقد لعب المغرب دور المحرك هذا بشكل قاطع حتى القرن الخامس عشر ، واشتد إذ ذاك غزو التجار المسيحيين للدويلات التى ستصبح فيما بعد دويلات البربر ، وكان غزواً عنيداً مستمراً متعدد الأشكال شمل كذلك المرتزقة المسيحيين لأن تلك الدول التى لا يتحدث عنها التاريخ الكبير ، ومنها دول فاس ومراكش وخاصة دولة الوهابيين بتلمسان مدينة التجار الشرفاء ، ودولة بنى حفص بتونس كانت تجلب الجند من البلاد المسيحية الفقيرة التى يحتمل أنها كانت إذ ذاك قد اكتظت بسكانها .

واتفق التجار وغيرهم من المغامرين فى أهدافهم وهى الحصول على المعدن الثمين إما بتأجيرهم أنفسهم كما هو الحال بالنسبة للمرتزقة ، وإما بمبادلة السلع المختلفة كالأقمشة وغيرها بالنقود أو التبر . وأن المعاهدات التجارية التى وقعها الحكام المسيحيون مع ملوك أفريقيا الشمالية تكون وحدها سفراً كبيراً تشهد بذلك المجموعة المشهورة التى نشرها ماس لاترى فى ١٨٨٦ وهى مجموعة كبيرة جداً ولكنها مع ذلك غير كاملة مما يدركه البحاث فى كل يوم ، وتحوى دور الوثائق الأوروبية عدداً ضخماً من الوثائق التى لم يسبق بحثها عن هذا الاندفاع وهذا الغزو الذى جاء من بلاد عدة فى وقت واحد : من قطالونيا ومرسيليا وجنوة والبندقية بل ومن راجوزة . وكان للمسيحيين فى هذه المدن التجارية أحياؤهم (على نظام الجاليات المسيحية فى بلاد الشرق) وكان لهم امتيازات

وحريات خاصة بهم ، وكان لهم فيها قناصلهم كما فى غيرها من البلاد ، وحين أقام دون جوان النمسوى بتونس عام ١٥٧٣ وجد جنوده بها الآبار التى بناها الجنويون فى فندقهم القديم .

وعلى ذلك فانه قد تدفقت على الأحياء التجارية فى مدن شمال إفريقية كافة السلع التى أمكن لأوروبا توريدها أو إعادة بيعها ، ونتج عن ذلك نمو كبير فى حياة المدن بأفريقيا الشمالية وقضت هذه المدن كلها على الاطار السياسى القديم إذ كانت مستقلة فى الواقع ، وهى تذكرنا غالباً بالجمهوريات الإيطالية فى القرن الثالث عشر كما هو الشأن فى وهران وتلمسان وتونس وطرابلس ، وكان هذا هو الشأن فى مدينة سبتة العظيمة قبل أن تحل بها نكبة عام ١٤١٥ ، ولكننا يجب أن نذكر جيداً أن هذه المدن نمت إذ ذاك دون أن يتناسب نموها مع البلاد التى تحيط بها ، فهى كانت من نتاج الاقتصاد العالمى وهذا هو موضع ضعفها الخفى ، ولكنها كانت إذ ذاك مدنا مشرقة تربط كما قيل عن طريق الصحراء الكبرى المصائر البعيدة لمدن وممالك منحنى النيجر الكبير بتاريخ المغرب أو بعبارة أدق بتاريخها ذاته . وارتبطت هذه المدن كذلك بتاريخ البحر المتوسط كله ولم يجهل أحد أمرها فى العالم المسيحى وعلى شواطىء البحر واستمرت شهرتها بالثراء حتى بعد زوال الرخاء فيها ، وقد ظن الأسبان حين انتزعوا طرابلس عام ١٥١١ أنهم استولوا على مدينة من مدن الذهب ولم يدركوا الحقيقة إلا بعد زمن ، بل إن دون جوان النمسوى حين أقام بتونس ورغب فى الاستقرار بها عام ١٥٧٣ ظن (بناء على بعض الوثائق الحفصية القديمة دون شك) مع انعدام ما يؤيد هذا الوهم فى المدينة ذاتها أن تونس كانت تتسلم فى كل سنة آحمالا وشحنات ثمينة من تبر تيفار .

* * *

وكانت الأمور قد تغير مجراها فى هذا الوقت ، وفى الواقع بدأ تبر السودان ينقطع وصوله منذ العقود الأخيرة فى القرن الخامس عشر أو على الأقل انقطع وصوله بكميات ضخمة إلى مدن أفريقيا الشمالية ، ومعنى هذا أنه فى عهد ازدهار

الجيل الثانى من رجال عصر النهضة وجد البحر المتوسط نفسه فجاءة محروماً من جزء كبير من مؤونته من الذهب وبالتالى من عنصر محرك لازم لحياته الاقتصادية ؛ ونتج من ذلك أن الرخاء المحلى فى أفريقيا الشمالية انهار كأنه حصن من الورق . ومنذا يستطيع أن يصف النكبة الفجائية التى حلت بهذه المدن وهذا البؤس الذى أصابها وبدا جلياً منذ السنين الأولى فى القرن السادس عشر حتى أنه انعكس بين سطور مؤلف قديم كمؤلف ليون الأفريقى ؟ ولكن موضع الغرابة أن المؤرخين لم يهتموا حتى الآن لا بتلك الأزمة العامة فى الاقتصاد التجارى للبحر المتوسط ولا بتلك الأزمة المحلية فى أفريقيا الشمالية . لقد تحدث ارنست مرسييه فى تاريخه القديم المعروف عن سيادة النظام الاقطاعى فى البلاد التى درسها وهذه الكلمة التى لم يحسن اختيارها تبين دون شك انه لم يعزب عن باله الاضطراب فى أفريقيا الشمالية وانهيار السلطات المنظمة فيها . ولكن منذا الذى حتى الآن بين لنا البحر المتوسط وهو واقع فى ضيق نقدى واقتصادى ، ومنذا على الأخص رجع إلى الأسباب بعد معرفة النتائج ؟ ومنذا الذى تساءل عما يمكن أن يكون قد حدث فيما وراء المغرب فى أعماق القارة المظلمة ؟

وماذا حدث ؟ لم يحدث شيء أكثر من حادث بسيط لا أهمية له لم يشأ أحد حتى الآن أن يرى تأثيره على صميم الحياة فى البحر المتوسط وبالتالى على كل اقتصاديات أوروبا وتاريخها . أجل لم يحدث أكثر من أنه فى عام ١٤٦٠ وصل الكاشفون البرتغال إلى مشارف خليج غينيا وعام ١٤٦٠ هذا هو نفس العام الذى توفى فيه مشجع هذه الكشوف الأمير هنرى الملاح . وبعد ذلك بعشر سنين كشف عن الخليج حتى جزر فرناندبو فى طرفه الشرقى .

وصل البرتغال إذن إلى خليج غينيا ، ومما لا شك فيه أن استغلال الأراضى الواقعة خلف هذا الخليج استغلالا اقتصاديا لم يبدأ فى التو والحال ، ومع ذلك فقد قامت منذ ١٤٨٢ محطة سان جورج دامينا وهى محطة تجارية وقلعة فى الوقت ذاته ، ولم تلبث أن تبعتها كاسا دامينا وهى محطة مركزية منظمة لتجارة غينيا ، وبدأ بذلك شيء أشبه بالأسر النهرى وهو الاستيلاء الاقتصادى الحقيقى على متاجر الصحراء الكبرى استيلاء غير مباشر أو بطريق الإختلاس إذ ظهر البرتغال على شاطىء مينا ومعهم المنسوجات ، والأغطية السميكة الريفية المصنوعة فى المتيفو

والمعروفة باسم hambels والأحواض والأوانى النحاسية التى يوردها تجار انفرس كما ظهروا كذلك ومعهم سلع أكبر قيمة كالخيل والقمح من مراكش، وفى مقابل تلك السلع حصل البرتغال على العبيد والتبر ، وهذا حادث هام وحادث له آثاره فى العالم إذ استطاع البرتغال أن يختلسوا لأنفسهم ولفائدتهم إن لم يكن كل المعدن الثمين الذى ينتجه الباحثون عن التبر من أهل السودان فعلى الأقل معظمه (وقد ضربت تلمسان فى عهد الأتراك عملة ذهبية حتى نهاية القرن السادس عشر) ، وقد نجح البرتغال فى ذلك بارسالهم عبر الدول والقبائل الوطنية الواقعة فيما بين خليج غينيا وحوض نهر النيجر تجاراً لهم من العمال السياسيين والمغامرين والكشاف عن الطرق والممهدين للتبادل والتجارة ، وكان دورهم فى هذا المجال خطيراً حتى أنه بعد ذلك القرن نجد فى بعض حوليات جزر الرأس الأخضر إشارة إلى دور هؤلاء الأبناء الضالين .

— ٢ —

وإذن فقد غير ذهب السودان طريقه واتجه إلى المحيط الأطلسى فهل يتخذ بعد ذلك طريقه إلى أوروبا والبحر المتوسط ؟ أنه إن فعل ذلك فليس فى نهاية الأمر أى تغيير بالنسبة للاقتصاد الأوروبى بعد الاضطرابات الأولى التى لابد منها فسواء حصلت أوروبا على حاجتها من الذهب اللازم لتجارتها فى الشرق عن طريق المغاربة أو عن طريق البرتغال فهذا أمر لا أهمية له وفى هذه الحال لا يعدو التاريخ الذى نقوم باستعادته مرتبة الطرائف ، وفى الواقع سارت الأمور على هذا النحو تقريباً عشرات من السنين فوصل ذهب السودان إلى لشبونة ووصلت معه منتجات هامة أخرى مجلوبة كذلك من سواحل غينيا ومنها — إذا قصرنا الكلام على هذا المنتج دون غيره — الفلفل غير الأصيل أو الملاجت malaguette الذى نافس برخص ثمنه زمناً طويلا فى مدينة أنفرس الفلفل الحقيقى المجلوب من الجزر ، إلا أن الملاحين البرتغال لم يكفوا عن التقدم صوب الجنوب ؛ فى عام ١٤٨٨ طافوا حول رأس الرجاء الصالح بقيادة بارتلميو دياز ، وفى عام ١٤٩٨ وصل فاسكودا جاما إلى كاليكوت للاستطلاع ، وفى عام ١٥٠٠ وصل إليها كابرال للتجارة ، وفى عام ١٥٠٢ — ١٥٠٣ تمت رحلة فاسكودا جاما

الثانية بأسطول تجارى كبير فلاح فجاءة لخيال البرتغال وأطماعهم عالم بأسره من الأعمال والصفقات .

ومنذ ذلك الوقت تغيرت الصورة فكان البرتغال فى البداية يأسرون السفن العربية المحملة بالفلفل والتوابل دون أن ينفقوا فى سبيل ذلك شيئاً ، ثم لما أصبحت هذه المباغتة أمراً غير مستطاع اضطر البرتغال إلى التزود بالمال لشراء الفلفل والتوابل واللآلى الهندية ، وكان البرتغال قد وجدوا هذا المال وبعبارة أدق هذا الذهب الذى لم يكن إلا ذهب السودان . وهذا هو السبب فى أنه اتجه إلى بلاد جديدة بدلا من أن يبعث الحياة فى تجارة البحر المتوسط ، وهذا هو السبب أيضاً فى أن هذا التحول القوى قد سحبه إلى حد كبير من التجارة القديمة فى البحر المتوسط .

* * *

ومن المتفق عليه أن بلاد البحر المتوسط قد قاومت هذه الأزمة ولعب الجنويون فى تلك المقاومة دوراً بارزاً ، ولما استلزم الأمر فيما بعد الكفاح فى سبيل الفلفل والتوابل قام بالدفاع عن الأوضاع القديمة كل من البندقية وسلاطين مصر ، ولكن أول ضربة أصابت الاحتكار والتوازن فى البحر المتوسط جاءت قبل ذلك من المغرب وفى معرض تبر السودان ، وكان لجنوة الفضل ، إذا كان ثمة فضل ، فى أنها حاولت وحدها إذ ذاك الوصول إلى حل ضد البرتغال ، ولا ننسى أن الجنويين هم الذين اشتركوا عام ١٤٧٠ فى الدفاع عن أرزيلا ضد البرتغال . وكان الجنويون على الأخص هم الذين حاولوا منذ منتصف القرن الخامس عشر أن يسبقوا البرتغال المشغولين بالطرق البحرية وذلك بالوصول حتى سجلماسة وتوات فى أعماق الطرق المارة عبر الصحراء الكبرى . وكانت محاولتهم هذه عبثاً ولم يمكن تجنب الأزمة العامة فى بلاد البحر المتوسط ولما كان الأمر يرتبط بعضه ببعض ، ولما كان الذهب ليس هو فقط محرك الاقتصاد ولكنه فضلا عن ذلك يؤثر فى النشاط الاجتماعى والحضارة ذاتها أى فى البلاد الغربية وتبعاً لتقاليدها وعقليتها الغربية — فان هذه الأزمة قد أدت إلى نتائج أخرى غير النتائج الاقتصادية البحتة وسنبين نتيجة صغيرة منها .

لقد أثر قحط المعدن الأصفر فى نهاية الأمر فى ازدهار النهضة الأولى الذى لا يمكن الفصل بينه وبين القوة والغنى فى المدن والطبقات البورجوازية المشتغلة بالتجارة الكبرى فى البحر المتوسط ، ولا شك أن البحر المتوسط استطاع إذ ذاك أن يتجه إلى أوروبا التى كان التقدم الصناعى الفنى فيها كاملا ونشط فيها العمل فى المناجم نشاطاً تاماً ، ولكن إلى أى حد يمكن لذلك النشاط أن يعوض ما فات ؟ وكذلك كيف ساعدت الاضطرابات الاقتصادية على أحداث الأزمة الكبيرة الخاصة بالحروب الإيطالية ؟ تلك أسئلة لم يوجهها أحد . ويجب على التاريخ المدرك لواجبه أن يقبل توجيهها . وعلى أية حال فان ثمة حقيقة لا يتطرق الشك إليها ويبدو أنها تتفق مع تفسيرنا وهى أنه قد وضح الاهتمام فى كل مكان فى أوروبا تقريباً ولا سيما فى أوروبا الوسطى ثم فى إيطاليا ، بضرب النقود من الفضة التى هى بديل من الذهب .

وإذن فقد نشأت أزمة فى الذهب تلتها أزمة فى التوابل والفلفل أصابت كلتاهما اقتصاد البحر المتوسط بضربات عنيفة إن لم تكن قاضية . وكان فى الإمكان فى نهاية الأمر التغلب عليهما . صحيح أن السفن الموسمية البندقية لم تستطع شحن أى حمل من الفلفل أو التوابل من أرصفة ميناء الاسكندرية فى ١٥٠٤ بل أن التجار الألمان المتعاملين مع فندق الألمان بالبندقية اضطروا إذ ذاك إلى طلب مشترياتهم من فرنكفورت وأنفرس ، ولكن الأزمة على حدتها فى بداية القرن لم تستمر طويلا . فالتجارة العربية فى المحيط الهندى بعد أن كانت عرضة للتعقب والمضايقة وسوء المعاملة نجحت فى الاستمرار ، وشوهدت مرة أخرى كميات ضخمة من الفلفل والتوابل فى ميناء طرابلس والاسكندرية ؛ فهل يرجع ذلك إلى إستحالة إغلاق المحيط الهندى فى وجه السفن العربية بسبب التسهيلات (غير المجانية) التى سمحت بها السلطات البرتغالية لهذه التجارة العريقة ؟ أو أن ذلك يرجع إلى التفوق فى صنف ونوع السلع التى كانت تنقل على هذا النحو عبر الطرق القديمة فى الشرق فلم يتعرض الفلفل المباع فى البندقية إلى رحلة بحرية طويلة وإلى التحلل البطىء الذى أصاب السلع البرتغالية والتى كانت مع هذا يقوم بشرائها من مصدرها تجار تقل خبرتهم بصفة عامة عن خبرة التجار العرب ؟ ويضاف إلى ذلك سياسة رفع الأسعار

التى مارسها البرتغال والتجار الذين تحكموا فى تجارة الفلفل بأنفرس وهى سياسة أدت إلى إنقاذ الموقف السيء الذى تعرضت له تجارة الشرق . إلا أن هذا الأمر لا يهمنا هنا فالأمر الجوهرى بالنسبة لنا هو أن تجارة الشرق قد استمرت فى طرف البحر المتوسط وفى ظروف تتفق وظروف الماضى : وظل شرق البحر مخرجاً اضطراريا للمعادن الثمينة فكيف أمكن ذلك ؟ ومتى استطاعت بلاد البحر المتوسط أن تتغلب على الأزمة المعدنية التى كانت تعانيها ؟

يمكننا الجزم بأن ذلك قد حدث حين جاءت الفضة الأمريكية وحلت محل ذهب السودان الناقص ، وحين وجد أهل البحر المتوسط فى أشبيلية بأسبانيا المعدن الأبيض الذى أنقذ تجارتهم . ولكن هل وجدوا هذا المعدن الأبيض فى التو والحال ؟

(٣)

لقد وصلت أولى شحنات المعادن الثمينة من الذهب والفضة (وذلك لأن شحنات الذهب الأمريكى استمرت إلى عام ١٥٥٠ تقريباً) إلى أسبانيا فى بداية القرن ولكنها لم تصل إلى كامل أهميتها إلا منذ بداية عام ١٥٥٠ تقريباً فمنذ ذلك الحين ظلت شحنات المعدن الأبيض الواردة فى أثناء القرن تضطرد زيادتها بشكل منتظم تقريباً وبلغت غايتها من ١٥٥٠ إلى ١٦٤٠ فى خلال الفترة الاستعمارية الكبرى فى تاريخ أسبانيا .

ولم تلبث أشبيلية أن أصبح لها أهمية ضخمة فى الحال بعد أن تأسس بها فى عام ١٥١٣ بيت التجارة Casa de Contralaçion ومنذ البداية كان الإيطاليون من مختلف المدن التجارية بشبه الجزيرة الإيطالية ولا سيما الجنويون من أنشط تجار هذه المدينة العظيمة ، ومن ثم يمكن أن نفترض أن المعدن الأبيض الأسبانى قد دخل منذ وقت مبكر بطرق قانونية أو غير قانونية فى الدورة الأوربية ؛ وبديهى أنه ليس من المستطاع معرفة النسبة بين هذا المعدن الأسبانى الأبيض وغيره أو معرفة المصاعب التى واجهها ، وإن الحركة التى قام بها المشاركون فى إستئجار الأراضى (comuneros) وهى فى صميمها حركة معادية للأجانب قد عارضت بشدة تصدير المعدن الثمين لفائدة البلاد

الأجنبية . وكان البرلمان الأسبانى (cortès) يسير دائماً فى هذا الاتجاه ولم يخش شرلكان أن يعارض حتى منتصف القرن على الأقل تقريباً هذه الحركة القوية التى قام بها الرأى العام فى قشتاله ، وفضلا عن ذلك فان الجنويين (والأمر متعلق بهم على الأخص) إذا كانوا قد مولوا نمو أشبيلية فى بداية القرن تقريباً وأسهموا بقوة فى نمو مركز التجارة الأمريكية بدقة نظام التحويل واقراض النقود والتعامل من مسافة بعيدة (عبر المحيط) وبالتالى لفترة طويلة فانهم مع ذلك لم يشتركوا مباشرة فى اقراض الحاكم ، وهى العملية المالية الوحيدة التى كانت تسمح باخراج المعدن الثمين بكميات ضخمة خارج أسبانيا التى أحكم إغلاقها . وفى الواقع لم تبدأ القروض الكبرى التى أقرضها الجنويون لشرلكان إلا فى منتصف القرن ، ولم تحل هذه القروض الجنوية محل قروض آل فوجر وغيرهم من أصحاب البنوك فى جنوب المانيا إلا فى عهد فيليب الثانى بعد إفلاس أسبانيا الأول عام ١٥٥٧ ، ويضاف إلى ذلك أن حكومة شرلكان لم تسمح بخروج مبالغ ضخمة من الفضة المسكوكة قبل ١٥٥٢ ، ويحملنا هذا كله على الظن بأنه قد حدث بعض التأخير فى وصول الكميات الضخمة من المعدن الأبيض الى البحر المتوسط .

ومما ساعد على هذا التأخير أن الفضة الأسبانية حين تخرج متدفقة من أسبانيا ويسهل علينا نسبياً تتبع رحلاتها فى أوروبا فأنها لا تتخذ طريقاً مباشراً إلى البحر المتوسط ، بل ظلت تسير ص ١٥٦٠ — ١٥٧٠ عند خروجها من أسبانيا فى الطريق البحرى من لاريدو أو إحدى الموانى القريبة من ساحل كانتابريا حتى انفرس ، وجرى بين هاتين المدينيتين نهر من الفضة على غاية الأهمية للحياة الاقتصادية فى أوروبا كلها وأن يكن من الصعب أن نتتبع على وجه التأكيد المنعطفات العديدة فى سيره بعد انفرس ، ولكن وجود هذا التيار الرئيسى من لاريدو إلى انفرس أمر له أهميته القصوى ، وليس أدل على تلك الأهمية إذا كانت ثمة حاجة إلى دليل من كل العقود التى تمت بين التجار وملك أسبانيا ، إذ كان حكام أسبانيا يدفعون بانتظام فى لاريدو كميات فى الفضة بدلا من المبالغ التى دفعت لهم مقدماً فى الجهات الشمالية أى فى انفرس دواماً على وجه التقريب ، أو فى بعض الأحيان النادرة وفى مقابل مبالغ أقل بكثير فى أماكن أخرى كميلان ونابلى ، ويثبت هذا عقدان مؤرخان فى ١٥٥٧ يمكن أن نتخذهما مثلا إذ أنهما

عقدا غداة الافلاس الأول الذى وقعت فيه الدولة الأسبانية فى مايو سنة١٥٥٨ بين فيليب الثانى فى ناحية واثنين من أصحاب البنوك فى جنوة وهما نقولو جريما لدى وقسطنطينو جنتيلى من ناحيـة أخرى . ونحن نعلم أيضاً أن آل فوجر ملتزمى مناجم الزئبق بجهة المدائن بأسبانيا ومناجم الفضة بوادى القنال وأراضى الطوائف الدينية كانوا يحصلون على تسهيلات غير رسمية لإخراج الفضة من أسبانيا عن طريق البرتغال بفضل وساطة التجار اليهود من ذوى المصالح فى تجارة الهنـد البرتغالية والذين كانوا يرغبون خاصة فى الحصول على النقود فقدموا بدلا منها سفتجات محولة على انفرس ، وعلى ذلك فانه يمكن أن نتصور إلى جانب هذا التيار الرسمى الكبير حركة كبيرة من الفضة ورءوس الأموال متجهة من شبه جزيرة ايبيريا عن طريق المحيط الأطلسى إلى مدينة انفرس دائمة الحركة .

* * *

ولكن منذ سنة ١٥٦٨ تحول الصراع الاقتصادى والسياسى بين فيليب الثانى وانجلتره إلى حرب بحرية ، وأغرى السفن الانجليزية فى المانش وبحر الشمال وسهل عليها الاستيلاء على سفن بسكاى المستديرة فى أثناء مرورها ، وهى السفن المعروفة باسم Zabra والتى كانت تنقل صوب الشمال الأصواف الأسبانية والمعدن الأبيض الأمريكى الثمين على هيئة كتل يتراوح ثمنها من خمسين ألف إلى مئتى ألف دوقات أو تزيد ، ويمكن أن نتتبع يوما بيوم بفضل رسائل السفراء الأسبان فى لندن أو المراسلات المستفيضة لدوق البا فى الأراضى الواطئة حوادث هذه الحرب التى تخللتها المفاوضات والتهديدات والتى لم تصل فى النهاية إلى الحرب الفعلية بالرغم من رغبة فيليب الثانى وأوامره القاطعة ، ولم ينقطع تعقب السفن البسكاوية فى أغلب الأحيان واقتيادها إلى الموانى الانجليزية والاستيلاء على حمولتها الثمينة ، وإذا كانت الدولة الانجليزية التى ظلت حتى ذلك الوقت تستدين رؤوس الأموال من تجار انفرس قد قررت بعد الشكاوى والفضائح ومناورات توماس جريشام وكيلها لدى تجار انفرس أن تعيش على الاستدانة من تجارها هى فانه يجب أن نلاحظ أنها قد اتخذت مقدماً احتياطاتها وذلك بعدم رد فضة السفن ، ومن ناحية أخرى قد يكون هذا التخلى نذيراً

يتدهور انفرس . لقد كالت القرصنة الانجليزية ضربة قاضية للملاحة البسكاوية الكبرى التى تدهورت تماما على وجه التقريب بعد فشل المحاولة البحرية التى قام بها بيرو منديز دى آفيليز فى سبتمبر ١٥٧٤ ، وتدل وثائق القنصلية فى بورجوس على توقف الأعمال التجارية فى الثلث الأخير من القرن ، وفيما يلى بورجوس فقدت أسواق مدينة دل كامبو بعد ١٥٧٥ (وهى السنة ذاتها التى وقع فيها الافلاس الأسبانى الثانى) أهميتها الدولية ، وبعبارة أخرى أن الصلة بين أسبانيا والأراضى المنخفضة أصبحت إذ ذاك مهددة وهدد معها كل ذلك التيار العريض القوى المتجه من شبه الجزيرة إلى بحار الشمال الذى لعب دوراً بارزاً فى تاريخ عظمة أسبانيا .

وبذلك انتهى عهد المالية الامبراطورية الأسبانية كما انتهى عهد من العهود الاقتصادية العالمية . وإذا كانت الحكومة الانجليزية قد كفت عن التزود من ذلك النبع الفياض حتى ذلك الوقت ألا وهو بورصة انفرس ، أو أنها قنعت بين حين وآخر بقروض صغيرة أو بتحويلات نقدية هزيلة فى بريمين وهمبورج فان ذلك مرجعه إلى اتساع نطاق الحرب البروتستنتية وامتدادها إلى بحار الشمال وكافة أرجاء المحيط الأطلسى من شواطىء أوروبا إلى شواطىء أمريكا مما أدى إلى اضطراب نظام تداول المعادن الثمينة ، فولت أيام الرخاء عن محطة وصولها التقليدية وهى مدينة انفرس ، ولم تعد مدينة حية فى كامل نشاطها بل مدينة تكاد تكون مخربة وسيقضى عليها النهب الذى حدث عام ١٥٧٦ ، وكذلك انتهى فى الوقت ذاته تقريباً ازدهار مدينة ليون التى ارتبطت كما تبين الوثائق بمركز انفرس أكثر مما ارتبطت بالبحر المتوسط وكانت من نواح كثيرة بمثابة محطة له ، وارتبطت كذلك على ما تؤيده بعض الوثائق بتجارة الفضة المهربة عبر جبال البرانس أو بواسطة بعض الموانى كميناء روان .

أما أن هذه الأزمة قد أثرت فى أسبانيا على مجالها الأمبراطورى فهو أمر لا يدعو إلى الدهشة ، فقبل أن يبدأ الصراع الكبير بين العالم البروتستنتى والأمبراطورية الأسبانية وجدت أسبانيا أنها قد انعزلت فى الأراضى المنخفضة من ناحية الطريق عبر المحيط على الأقل ، واستحال منذ ذلك الحين على ما تؤيده الشواهد الكثيرة إدخال النقود الفضية فيها بنفس السهولة السابقة ، ولجأ القوم

مضطرين فى عام ١٥٧٨ إلى وسيلة يائسة وهى ادخال رجال موثوق بهم فى جنوه إلى الأراضى المنخفضة حاملين قطع العملة الثمينة محوكة فى ثيابهم .

وفى عام ١٥٧٥ غداة الافلاس الثانى أصبحت الرحلة غير آمنة حتى أن فيليب الثانى وكان لديه فى أسبانيا مبلغ من النقد الحاضر يتراوح بين ثلاثة وأربعة ملايين دوقات لم يجد تاجراً يجازف لحسابه بتوصيله بحراً إلى الأراضى الواطئة ، ولم يمنع حصوله على قرض من آل فوجر وتحويلات على لشبونة من وقوع الكارثة التى ظهرت بوادرها منذ أمد طويل ألا وهى على حد قول كارلوس بريرا « بلشفة » الجيش الأسبانى فى الأراضى الواطئة وانقسامه إلى « سوفيتات » أو جمهوريات من الجنود المشتغلين باالنهب الذين اضطروا إلى العيش راضين على حساب الأهلين ، فكانت هذه الضربة التى حاقت بها يصعب التخلص من آثارها ، ذلك أن أسبانيا بفقدها حرية استخدام الطرق البحرية المؤدية إلى الشمال قد حرمت من أكبر وسائل النصر فى الحرب التى قامت للسيطرة على البلاد الجنوبية الغنية القوية وهى لم تكن ولا يمكن أن تكون إلا حرباً فى سبيل السيادة على أوروبا والعالم .

ومنذ ذلك الوقت اضطرت أسبانيا إلى القيام بحرب كلفتها غالياً للصعوبة والأعباء التى واجهتها فى نقل النقود أو الجند إليها .

* * *

وعلى أية حال فان ما يهم بحثنا هو أن قطع طريق المحيط الأطلسى الذى كانت تسير فيه النقود الأسبانية فى أوروبا أدى إلى ازدياد أهمية طريق آخر للتوزيع بديل منه ، وهو طريق من طرق البحر المتوسط يسير فى الأغلب من برشلونة إلى جنوة وبلغ غاية ازدهاره بين سنة ١٥٧٠ وسنة ١٥٧٥ ، وأن الدور الذى قامت به فى البداية السفن البسكاوية فى توزيع المعدن الأبيض على البلاد الأوربية قد انتقل منذ ذلك الوقت إلى قطائع أو سفن ملك أسبانيا ، فكانت قوافل السفن التى تقوم من سواحل أسبانيا إلى موانى إيطاليا تحمل وهى تحاذى السواحل صناديق ثقيلة من النقود ، وهى رحلات هادئة لم يعترضها حادث أو قرصان ولم

تشر إليها دائماً وثائق المجموعات السياسية مما يصعب معه تحديد بدايتها ويستلزم أبحاثاً طويلة موفقة ، ويصعب كذلك تحديد حجم هذه التجارة ومدى الانتظام فيها (وهو أمر محتمل كثيراً) اعتماداً على الوثائق ، ذلك أن الفضة إذا كانت لا تدخل أسبانيا بانتظام إلا عن طريق اشبيلية وحده تقريباً فانها فى خروجها لم تسلك طريقاً واحداً أبداً ، وهنا يجب أن نحسب حساباً للمخارج السرية وطرق التهريب الكثيرة ، ولكن هناك حقيقة لا يتطرق إليها الشك وهى أن هذه القوافل التى تمر بطريق البحر المتوسط أخذت تبين وتتضح للتاريخ بعد الأعوام ١٥٧٠ — ١٥٧٥ فحتى ذلك الوقت لا نجد ذكراً إلا لبعض القوافل الصغيرة فى عدد لا بأس به من الوثائق ، فمثلا نجد فى عام ١٥٦٨ تسليم نقود إلى دوق تسكانيا لدفع بقية الحساب المدين به ملك أسبانيا نظير السفن التوسكانية المؤجرة له ، وكانت عملية إرسال هذا المبلغ عملية صعبة لم تتم إلا بعد مساع كثيرة مما يدل كذلك على صعوبة إخراج النقود من أسبانيا إلى البحر المتوسط فى تلك السنين على مرأى العالم كله وعلمه ، وعلى العكس من ذلك نجد أنه بعد الأعوام ١٥٧٠ — ١٥٧٥ تعددت الشواهد على هـذه التجارة ونمت عنها نتائجها ذاتها وهى نتائج كبيرة . ولا يحتمل الأمر إلا وجهين فاما أن أكون مخطئاً جد الخطأ وإما أن يكون استبدال طويق برشلونة — جنوة بطريق لاريدو — أنفرس هو أكبر الحوادث التى وقعت فى نهاية القرن السادس عشر والتى تلقى الضوء على المؤلف الضخم الذى وضعه اهرنبرج وتشابكت معلوماته وكثرت فيه الحوادث الصغيرة حتى غرق فى الحوادث العارضة على حد قول سيميان . إن الكوارث التى حلت بمدينتى ليون وانفرس ، والتدهور الغامض الذى أصاب مدينة دلكامبو وكافة المدن المرتبطة بالطريق الشمالى وما عوض ذلك من ارتفاع شأن أصحاب البنوك الجنويين وانشائهم منذ ١٥٧٩ الجهاز الكبير لأسواق بيزانسون (وهى ترجع إلى قبل ذلك بكثير) والتى احتفظت مع ذلك باسمها القديم ولـكنها استقرت فى مدينة بياشنزا — إن هذه الانقلابات فى الحياة الاقتصادية والثروة فى أوروبا ترتبط بتغير مخرج الفضة الأسبانية وهذا معناه أنه من الأهمية بمكان أن نحدد للتاريخ العام زمان ومكان خروج الفضة من أسبانيا وخاصة بعد أن عرفنا الآن من مؤلفات ايرل .ج. هاملتون كيف دخلت الفضة الأمريكية إليها . وهـذا معناه أيضاً أن الشىء الجوهرى ، بعد عمليات البنوك

وأوراقها المعقدة التى هى ليست كل شىء إنما هو التداول الحقيقى للمعادن الثمينة على وجه الاحتمال وهذه حقيقة يمكن وصفها بأنها حقيقة عادية لو أنها لم تعزب عن البال فى أغلب الأحيان .

* * *

ويبقى دون شك حل المشكلة ذاتها بعد تحديدها على هذا النحو . ومن الأعراض التى لها دلالتها إغلاق الطرق الكبرى المحيطية أو على الأقل صعوبة ارتيادها وذلك فى نفس الوقت الذى ثأر فيه البحر المتوسط لنفسه ، وليس فى هذا القول شىء من المبالغة ، ومن الأعراض التى لها دلالتها كذلك أن الحروب الدينية شملت المحيط تدريجاً — وهى الحروب التى جرت العادة القديمة على قصرها على القارة الأوروبية أولا فى البلاد الواطئة ثم فى فرنسا — فى حين أنه فى الوقت ذاته وبطريقة عكسية انتقل البحر المتوسط من الحرب إلى السلام إذ انتهى فى ١٥٧٤ الصراع الذى نشب بين الأتراك والأسبان ؛ وإذن فقد نشبت الحرب على المحيط واستقر السلم فى البحر المتوسط ، وهذه الحقيقة المزدوجة نعتقد أن نتائجها لم تكن تافهة وخاصة النتائج المتعلقة بعودة البحر المتوسط إلى الحياة السلمية فى الوقت الذى تدفقت فيه الفضة الأمريكية على اقتصادياته . وقد نتج عن ذلك ارتفاع فى الأسعار كان أعم وأسرع مما حدث من قبل ومهد بذلك طريق العودة إلى الرخاء عامة والقوة والسلامة فى بلاد البحر المتوسط ، وكانت أداة ذلك ووسيلته هى النقود الأسبانية ، فغمرت منذ ذلك الحين كافة البلاد الواقعة على شواطىء هذه البحيرة الكبيرة أى البحر المتوسط ولا سيما السكودو الذهبى الذى ضربه شرلكان فى ١٥٣٧ ، وكان عملة حسابية أحياناً ولكنه كان فى الأغلب عملة حقيقية ، والعملة الفضية ذات الثمانية ريالات وقد نص على العملة الأسبانية فى تونس والجزائر وتركيا وذلك فى المبالغ المدفوعة لافتداء الأسرى . كذلك — وهذه أمثلة تصدق على غيرها — حين عقدت الحكومة الأسبانية فى ١٥٨١ فى السابع من فبراير هدنة مع سلطان تركيا مدتها ثلاث سنوات بوساطة جيوفانى ماريليانى وهو المذكور فى الوثائق الفرنسية باسم ماريليان — ذكرت أثمان الهدايا بعملة أسبانيا الجديدة وهى

« السكودو المضروب ينقش اراجون » على ما حددته بعض الرسائل الفرنسية . وفى راجوزة لم تجر العادة على أن يذهب كبار التجار بأنفسهم إلى الشرق بل كانوا يرسلون إليه من يمثلهم من أبنائهم أو شركائهم أو وكلائهم ، ولم يكن هؤلاء الممثلون عند رحيلهم يحملون سلعاً إذ غالباً ما كانوا يحملون معهم صرة أو كيساً مليئاً بالنقود . وفى بعض الأحيان كانت محتويات هذه الأكياس تذكر فى قائمة مفصلة قطعة قطعة . وقد نسخت بعض هذه القوائم فى السجلات المعروفة باسم سجلات المتنوعات الخارجية Diversa de Foris فى قصر المديرين . فأتاح ذلك لنا فرصة معرفة انتقال العملة الأسبانية ذات الثمانية ريالات فى نهاية القرن مختلطة بغيرها من العملات كعملة حلب السلطانية . مثل أخير : ذكر تقرير انجليزى ١٥٨٤ أن الريالات الأسبانية هى العملة الجارية فى الاسكندرية بمصر وأنها أحسن العملات التى يمكن نقلها إليها ، وإذن فلا سبيل إلى نكران هذه الحقيقة وهى أن كافة بلاد البحر المتوسط كانت إذ ذاك معتمدة على العملة الأسبانية .

وإذا كان نشاط أصحاب البنوك الجنويين — وقد أصبح القرن السادس عشر هو عصر تفوقهم ولم يعد عصر تفوق آل فوجر — قد استمر فى ازدهار ورخاء حتى حوالى عام ١٦٤٠ بالرغم من حوادث الإفلاس التى وقعت فيها الدولة الأسبانية وهى حوادث متعاقبة كادت أن تكون منتظمة (إذ وقعت فى الأعوام ١٥٩٦ و١٦٠٧ و١٦٢٧ و١٦٤٧) فان ذلك لم يكن مرجعه فقط كما قال اهرنبرج إلى براعتهم وهباتهم التى وزعوها على أنسب وجه ، أو كما زعم منافسوهم فى ألمانيا الشرقية إلى أنهم يتعاملون بالأوراق أكثر مما كانوا يتعاملون بالنقد . ولا جدال فى أن كلمة الافلاس قد تؤدى إلى الخطأ إذ كان الأمر فى الواقع تحويلا للديون أكثر مما كان إفلاساً حقيقياً ، فكلما أرادت الحكومة الأسبانية أن تفى بتعهداتها الباهظة كانت تدفع إلى دائنيها من ذوى الديون قصيرة الأجل دخلا دائماً تلتزم به الدولة وهو ماعرف باسم juros وكان أعظم ربح يعود على الدولة من ذلك هو أنها استطاعت أن تجعل هذه الدخول مقبولة بقيمتها الإسمية فى حين أن هذه الدخول ظلت تنخفض قيمتها باستمرار تقريباً فى عهد فيليب الثانى بمقدار ٥٠٪ ، وكان من الممكن أن تصاب معاملات الجنويين

بالشلل لقبولهم الدفع بمثل هذه الأوراق ولكن كان لديهم وسيلة لدرئه وذلك أنهم كانوا يستطيعون أن يدفعوا ديونهم بهذه العملة أو الأوراق ذاتها وهى ميزة لم يتخلوا عنها أبداً . بل إنه منذ ١٥٧٥ عمد الجنويون فى أسبانيا إلى استغلال مركزهم لتسوية أعمالهم على حساب الجنويين فى جنوه . ولكن يجب أن نقر بأن هذه الوسائل لم تكن كافية ، وأن ما أنقذ أصحاب البنوك الجنويين فى معاملاتهم ومضارباتهم الخطرة لم يكن مهارتهم أو سيطرتهم بأسواقهم على الحركة العامة لرؤوس الأموال فى أوروبا ، وإنما هو أن السفن المحملة بالفضة والتى سارت فى قوافل طويلة سيراً منظما بالرغم من القرصنة الإنجليزية والهولندية لم تكن تستوقف إلا نادراً فى أثناء عبورها المحيط الأطلسى ، وكانت تصل إلى مرسى أشبيلية . كانت هناك نذر ضخمة وبطء لايصدق وصعوبات لاحصر لها ومفاجآت ولكن الاتصال ظل قائما وتوقف كل شىء عليه.

وقد بينت الأبحاث الرائعة التى قام بها ايرل . ج . هاملتون أن المعدن الأبيض الأمريكى لم ينقطع وصوله بكميات ضخمة إلى أسبانيا (ونضيف إلى ذلك من جانبنا فضلا عن أسبانيا إلى بلاد البحر المتوسط) إلا فى السنوات ١٦٤٠ — ١٦٥٠ فكان من الممكن إذن أن يستمر أصحاب البنوك الجنويون فى التلاعب والمضاربة ، وكان التلاعب والمضاربة عملية تدر الربح إذ كانت فى صميمها وغايتها هى القيام عبر أوربا ولحساب ملك أسبانيا بدفع المبالغ التى تتطلبها السياسة العالمية لأسبانيا ، والقيام بدفعها بطريقة مربحة متطلعين دواماً إلى تسديد هذه المبالغ لهم نقداً فى النهاية . أما إذا انتهى وصول سفن الفضة فان ذلك معناه نهاية جنوه وتصفية أسواقها الدولية إلى غير رجعة وثمة كتاب رائع حقيق بالتأليف ، فضلا عن كتاب عصر آل فوجر Zeitalter der Fugger لريشارد اهرنبرج ، عن هذا العصر الذى لم يحسن إدراكه من جهته والذى أعقب عصر آل فوجر ، وهو عصر كبار أصحاب البنوك الجنويين الذين تحكموا هم أيضاً فى زمنهم فى مصائر العالم وصنعوا التاريخ الكبير إن كان له صناع ، ولكن أليس عهدهم والطريقة التى نقلوا بها مركز أسواقهم من بيزانسون إلى بولينى ثم إلى شامبرى وافريه واستى وأخيراً إلى بليزانس ومعها نقلوا المركز المالى للعالم ، وهذا الاتجاه نحو الجنوب وأفضليته — أليس ذلك كله دليلا على أن البحر المتوسط قد ثأر

لنفسه ؟ ثم أليس سقوطهم هو سقوط البحر المتوسط ؟ وأليس البحر المتوسط مرتبطاً كجنوه وللأسباب ذاتها بالفضة الأمريكية ؟ .

وعلى أية حال فانه من الغريب أن نلاحظ أن تدهور البحر المتوسط الذى أشار إليه منذ زمن طويل مؤرخون نزيهون (وغالباً ليس لهم عذر إلا تكرار أسلافهم) لم يظهر حقاً قبل أواسط القرن السابع عشر ، فعند هذا الحد الزمنى الذى عينته حقائق تاريخ المعادن الثمينة أو فيما يقرب منه يمكن التحدث عن تدهور أسبانيا (ونذكر ثورة قطالونيـة ١٦٤٠ وثورة أخرى أشد لأنها كانت حاسمة وهى ثورة البرتغال فى السنة ذاتها ١٦٤٠) كذلك يمكن التحدث منذ ذلك الوقت عن تدهور إيطاليا ، بل عن تدهور الامبراطورية العثمانية وهى فى الواقع بلاد أشد ضعفاً وأقرب إلى الاقتصـاد الطبيعى ومن ثم فهى أقدر على المقاومة من البلاد المعقدة الفنية فى غرب البحر المتوسط . كذلك يمكن التحدث عن تدهور تجارة الشرق وقد قيل إن الهولنديين أصحاب السيادة فى المحيط الهندى هم السبب فى تدهور هذه التجارة وهذا حق دون شك ولكن ما أثر إنعدام المعادن الثمينة فى هذا التدهور ؟

أجل لقد حدث إذن تدهور فى بلاد البحر المتوسط ولـكن حدث فضلا عن ذلك وأكثر مما نظن تدهور وضيق فى أوروبا كلهـا ، ويعتقد إيرل . ج . هاملتون أن المستعمرات الأمريكية بالنظر إلى إزدياد سكانها وتعميرها أخذت تمتص كميات ضخمة متزايدة من العملة ، وهو يعتقد أيضاً أن المناجم أخذت تنضب تدريجياً ، وأن تكاليف استغلالها ونقل المعدن زادت مع الزمن — وقد ساعد على ذلك التهريب وعجز الحـكومة — وان جزءاً من المعدن الأبيض الأمريكى قد هجر المحيط الأطلسى تدريجاً وانتقل منه إلى المحيط الهادى بطريق الأسطول الذى كان يبحر من ميناء اكابولكو بالمكسيك إلى مانيلا حيث كانت تصل إليهـا السفن الصينية للبحث عنه . وهذه كلهـا فروض دون شك ولكن هناك حقيقة ثابتة وهى أن مصـادر الفضة الأمريكية قد غاضت ونضبت ، وأن الحكومة الأسبانية فى عام ١٦٤٧ ألغت أسطولها فى بارلوفنت فى مدخل بحر الانتيل بعد أن أصبحت حراسة هذا البحر عديمة الجدوى . ونعيد القول (على بعد) بأن البحر المتوسط ليس وحده هو الذى حكم عليه بمصير أقل

إزدهاراً بل أن بقية أوروبا تبعته فى مصيره هذا فأعقب عصر الجنويين (١٥٥٠— ١٦٣٠) عصر كولبر وهو لم يكن عصر رخاء .

إلا أن الرخاء قد عاد مرة أخرى وبفضل أمريكا إلى حد ما . إن هذا الموضوع طويل نعتذر عن طرقه بايجاز على هذا النحو بضرب الأمثلة المشابهة لا لشيء إلا لذكرى مارك بلوك نفسه الذى تنبه إليه فى السنين الأخيرة من تدريسه . ألم يشر منذ نهاية حكم لويس الرابع عشر إلى عودة الرخاء أو على الأقل إلى بشائر هذه العودة ؟ وألا يمكن أن نرى فى هذه العودة هبة جديدة من أمريكا لى أوروبا وهى هبة ليست من الفضة فى هذه المرة ولكن من الذهب ، ذهب « المناجم العامة أو ميناس جرايس » المستخرج من قلب القارة البرازيلية ذاته . ونحن نعلم أن قوة الذهب هى أضعاف قوة الفضة ، وأن الذهب قد ظهر فعلا فى السنين الأخيرة من القرن السابع عشر ، ولن نقول على وجه التأكيد أن الذهب وحده هو الذى دفع القرن الثامن عشر ولكنا نقول مرة أخرى أن مايقع للنقود لايهم فقط التاريخ الاقتصادى وحده ولكنه يساعد على إلقاء الضوء القوى على تاريخ الجماعات والحضارات كله وله قيمة الدلالات والأسباب .

* * *

ولنلخص : السنوات الأولى من القرن السادس عشر : تحول ذهب السودان الذى سبق أن حوله البرتغاليون عن طرقه المباشرة المتجهة إلى البحر المتوسط تحول إلى طرق جديدة فى اتجاه المحيط الهندى . واضطربت كما لو أن الأمر قد حدث بطريق المصادفة ، النهضة الإيطالية الأولى وضعفت وخبا نورها. ثلاثون عاماً : تتدفق المعادن الأمريكية على أوروبا وتعيد اشبيلية توزيعها وثبتت ، كما لو كان الأمر مجرد مصادفة أيضاً ، دعائم قوة أسبانيا وازدهرت وعمل بها الجنويون واتخذوا منذ البداية موقفاً معادياً من البرتغاليين ولم يلبثوا أن حلوا محل أصحاب البنوك فى أوجزبورج . ولكن من ناحية أخرى إذا كان البحر المتوسط يفيد من الفضة الأسبانية فانه لايتسلمها مباشرة دائماً . والطريق الرئيسى الذى

ينتشر على طوله هذا المن هو طريق المحيط أى الطريق من لاريدو إلى أنفرس ، ولم ينقطع جريان هذا النهر الذى روى فى الوقت ذاته فيانى أسبانيا ومراعى فلاندر .

إلى أن قطع هذا الطريق وبدأت انفرس بعد قطعه فى الاضمحلال ، وأظلمت مدينة دلكامبو ، ولم تعد ليون مدينة الأسواق الظافرة ، وانقطعت أسبانيا عن فلاندرز بحراً ، ولكن على العكس قوى شأن الطريق البحرى من برشلونة إلى جنوة ، وغزت العملة الأسبانية كافة بلاد البحر المتوسط . واستمر الرخاء حتى أواسط القرن السابع عشر إلى الوقت الذى انقطع فيه المعدن الأبيض عن تحمر البحر المتوسط وأوروبا عن طريقه (ولعله قد تحول إلى مانيلا أو امتصته أمريكا ذاتها فى تقدمها) فحدث إنحطاط وتدهور لم يكن له علاج قبل القرن الثامن عشر إلا بتدفق جديد فى الثروة المضروبة عملة ، أى بتدفق الذهب المستخرج من المناجم البرازيلية أو المناجم العامة .

وهكذا تعاقبت فصول تاريخ العالم على وقع أنغام المعدن الأسطورى .

فرناند برودل

مدير دراسات
بمدرسة الدراسات العليا بباريس